خـاتـمـــة

الحل الوحيد الممكن ..

ثمة ، اذن ، فى المغرب الراهن ، **مشكل مزمن** . مشكل يحتل الصدارة ضمن مجموعة المشاكل الاخرى التى لم تعرف بعد طريقها نحو المعالجـــة الجدية ، والحل الصحيح ... انه ، بلا نزاع ، مشكل التعليـم .

ونحن اليوم ، حينما نواجه هذا المشكل ، وبعد ثمانية عشر عاما من التيه فى سراديب الفوضى واللامسؤولية والارتجال ... نجد أنفسنا فى نفس الموقع الذى كنا فيه عام 1956 ، أمام نفس المشاكل ، وازاء نفس المهام . ان الفرق بين وضعيتنا امس ، ووضعيتنا اليوم ، هو فرق فى الدرجة فقط : **لقد ازدادت مشاكلنا تعقيدا ، وبالمقابل ازداد وعينا عمقا** . ولذلك فمن الممكن بل من الواجب ، ان نعود فنضع أنفسنا فى نفس الموقع الذى كنا فيه غداة الاستقلال ، ونتساءل اليوم ، كما كنا نتساءل امس : ما هى المهام التى تنتظرنا وقد حصلنا على استقلالنا القانونى الرسمى ؟

نفس السؤال الذى كنا نطرحه عام 1956 ، يواجهنا اليوم ، بكل عمقه، وبكامل أبعاده ، ونحن على ابواب سنة 1974 ! ان تجربة « الاستقلال » ، الفاشلة ، المليئة بالازمات والاخفاقات ، لم تغير شيئا من جوهر القضايا التى تواجه شعبا هو بصدد مد رجليه ، ليخطو خطوته الاولى على عتبة الاستقلال

الحقيقى ، بعد ليل طويل من الانحطاط والاستعمار . . .

فما هى ، اذن ، المهام الاساسية التى ظلت مطروحة علينا طوال الثمانى عشرة سنة الماضية ، وما هى الآفاق الجديدة التى فتحتها أمام وعينا ، هذه السنوات الطوال ، المليئة بالتجارب ، الغاية بالدروس ؟

انها نفس المهام التى تواجه جميع الشعوب التى عانت من الانحطاط والاستعمار ، مهام : **استكمال التحرير وبناء عالم الغد** .

واذا كنا قد واجهنا قبل هذه المهام ، بمقولات الفكر النخبوى الذى حللناه سابقا ، والذى كان يحرص على التوفيق بين « مصالح الوطن العليا » ومتطلبات « المصالحة والتعاون » مع حماة الامس ، حرصه على التوفيق بين مصالح الفئات المتصارعة بصمت داخل « الحلف الوطنى » الذى تولى قيادته ، ناقلا هكذا « روح المصالحة الوطنية » الى ميدان التعامل مع الاستعمار ومخلفاته ، والاقطاع ورواسبه ، فاننا اليوم نعيش ظروفا جديدة ، تفرض علينا مواجهة نفس المهام ، بروح جديدة ، ومنطق فى التعامل جديد . . . **لم يعد « التوفيق » ممكنا ، ولا « تسكين » المشاكل مجديا .. ان الاستمرار فى هذا او ذاك ، ليس فقط مضيعة للوقت ، بل هو هروب من الواقع ، وتكريس لاسباب الفشل والضياع**

* * *

استكمال التحرير ، وبناء عالم الغد ، مسألتان مرتبطتان ، تحدد كل واحدة منهما الاخرى ، وتستقى منها معناها : استكمال التحرير يكتسب مضمونه من نوعية الغد الذى يراد بناؤه ، وعالم الغد يتحدد بدوره بمدى العمق الذى تجرى به عملية استكمال التحرير . . .

والتربية اليوم ، انما تعنى ، فى عمق ، ما تعنيه ، بناء عالم الغد ، والاعداد له .

استكمال التحرير ، وبناء عالم الغد ، والاعداد لهذا العالم ، امور ثلاثة مترابطة تتحدد مضامينها جميعها ، مضامينها الحقيقية ، على ضوء المعطيات الراهنة ، معطيات واقعنا ، ومعطيات عصرنـــا .

فما هى هذه المعطيات اذن ؟

انها معطيات مجتمع شبه مستعمر ، شبه راسمالى ، شبه اقطاعى ، يعيش ابناؤه فى عصر يفرض عليهم الاختيار بين طريقين اثنين ، لا ثالث لهما : اما طريق الراسمالية ، واما طريق الاشتراكية ، انها معطيات « المجتمـــع المتخلف » ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . فأى الطريقين نختار ؟

ان ولوج طريق الراسمالية لم يعد اليوم ممكنا ، لقد فات أوانه اولا ، ولان الراسمالية اضحت امبريالية استعمارية ثانيا .. طريق الراسماليـــة اليوم ، بالنسبة لمجتمع متخلف ، لا يمكن ان يكون غير طريق التبعية ، طريق السير فى ركاب الاستعمار .. الطريق الذى يتنافى كلية مع المهمة الاساسية الاولى التى تنتظرنا : مهمة استكمال التحرير .. (التحرير من مـــاذا ؟) ، التحرير من مخلفات الاستعمار ورواسبه وشبكاته واحابيله .

ليس من طريق ، اذن ، من اجل التحرير والتنمية غير الطريق الاشتراكى . **هذه هى المعادلة البسيطة ، والابجدية الواضحة ، التى يفرضها منطق العصر .**

هل هناك من معادلة اخرى غير هذه ؟

بامكان بعض الناس ان يشككوا فى منطق العصر ، ولكن ، بما انهـــم لا يستطيعون الوقوف عند حدود نوع من أنواع « المنطق القديم » ، لانهـــم يعيشون بأبدانهم ، على الاقل ، فى عصر يختلف جذريا عن جميع العصـــور « الماضية » ، فانهم يجهدون انفسهم ، بدون طائل ، فى ايجاد صيغة ما من صيغ التوفيق التى « تجمع » بين الماضى والحاضر ، بين القديم والجديد ، بين

« الاصالة والمعاصرة » ، اما بدافع من وعى متخلف ، زائف ، واما بدافع مصالح ذاتية وموضوعية ، يحققونها من وراء « الآذان الصاغية » وامام « العيون المقفلة » . . . **ان شعار التوفيق هذا ، الشعار الذى يعكس الرغبة فى الاحتفاظ بـ « الحاضر » ممددا الى الماضى والمستقبل معا ، قد بقى ، وسيبقى دوما ، عند حدود الدعوة ، والمطالبة ، والثرثرة** . انه شعار اجوف يطرح مشاكل مزيفة ، فلا يصل الا الى حلول مموهة . . . ولربما ستتاح لنا الفرصة ، فى الفقرات القادمة ، للكشف عن بعض جوانب هذا التمويه وذاك الزيف ، فى الميدان الذى يخصنا ، ميدان التعليم والثقافة .

* * *

كيف نحدد ، اذن ، اهداف سياسة تعليمية ، تساير منطق العصر ، وتستجيب لمتطلبات استكمال التحرير والبناء الاشتراكى ، فى بلد هو المغرب بالذات : بماضيه وحاضره ، بمقومات حضارته واصول ثقافته ، بمشاكله ومطامح شعبه .

استكمال التحرير والبناء الاشتراكى ، **هدف عام** ، يمكن ، بل يجب ، ان يتخذ **صيغا اخرى** ، اكثر دقة ووضوحا ، حسب الميادين المطلوب تحريرها وبناؤها . وبخصوص الميدان الذى يخصنا ، ميدان الثقافة والتعليم ، **نقترح** صياغة هذا الهدف بشقيه ، كما يلى

— **تعميم التعريب** (= استكمال التحرير) .

— **دقرطة التعليم** (= البناء الاشتراكى) .

لنوضح قليلا ما نقصده .

1 — **تعميم التعريب** : لنبدأ ، انطلاقا من منطق العصر نفسه ، بالفصل فى مسألة كثيرا ما دار النقاش حولها ، وكثيرا ما كان هذا النقاش ، صادرا ،

بوعي ، أو بدون وعي ، عن تأثير الغزو الاستعماري ، الثقافي منه بالخصوص . تطرح هذه المسألة غالبا ، اما على صيغة التساؤل عن ضرورة التعريب أو عدم ضرورته ، واما على صيغة التشكيك في مدى قدرة اللغـــة العربية على مسايرة المعارف والعلوم العصرية والتعبير عنها .

هذه المسألة ، بصيغها المختلفة ، هي في نظرنا ، باطلة زائفة . اللهم الا اذا كان الامر يتعلق فعلا بارادة التشكيك في هويتنا ، والنيل من قدرتنا على أن نعيش عصرنا . ذلك لان القضية الجوهرية التي تطرحها مثـــل هـــذه التساؤلات، محاولة اخفاءها ولفها تحت أكوام من « الموضوعية » الكاذبة ، و «التجرد» الزائف ، هي بكل بساطة ووضوح : **اما ان نكون عربا او لا نكون؟ اما ان يكون العرب قادرين على ان يعيشوا حضارة عصرهم ويساهموا في انمائها واغنائها ، او غير قادرين ؟**

تحقيق التعريب الشامل ، اذن ، شرط ضروري لاثبات هويتنا ، وتأكيد أصالتنا . وهل العروبة شيئا آخر غير اللغة والثقافة ؟ وهل يمكن فصل اللغة عن أهلها حتى تتهم وحدها بالعجز والقصور ، دون النيل من شخصيتهم ، والطعن في قدراتهم وكفاءاتهم ؟

تكفي هنا هذه التساؤلات ، ولننتقل الى موضوعنا : كيف نحقق التعريب الشامل ، العميق ، في مختلف مجالات حياتنا ، الاجتماعية والفكرية ، بأسرع وقت وانجع سبيـــل ؟

لا بد من القيام اولا بحصر المجالات او المستويات التي نعاني فيهـــا «مشكل التعريب»، أي تلك التي تقوم فيها عراقل وفجوات تقف عائقا أمام تبلور شخصيتنا ، وتحقيق وحدتنا الاجتماعية والفكرية ، بسبب غياب اللغة القومية فيها ، جزئيا او كليـــا .

مهمة سهلة ، لا تتطلب تفكيرا طويلا .. انها ، بالحصر ، المجالات التالية :

ـ التعليم بمختلف مراحله وشعبه

ـ الادارة بمختلف مرافقها وفروعها .

ـ لغة الحديث والخطاب ، فى المنزل والشارع والمدرسة .

ـ الفكر وقوالبه ، والثقافة واطرها .

وبعبارة موجزة ، **الحياة العامة** ، بكامل ابعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية . انها مجالات وابعاد مترابطة ، متداخلة ، لا يمكن الفصل بينها ، ولا تقديم جانب منها على الجوانب الاخرى ، والا كانت النتيجة، انواعا من التخبطات ، وضروبا من الحلقات المفرغة التى تزيد المشكل تعقيدا واستفحالا ، وتفتح المجال واسعا امام عمليات التشكيك الصادرة عن نية مبيتة مقصودة ، او عن قصور فى الرؤية ، وعدم ادراك لحقيقة المشكل ، وطبيعته الخاصة .

لنقدم بعض الايضاحات :

ـ **تعريب التعليم ، مثلا** ، لا يتأتى ، ولا يمكن أن يتحقق بسلوك «الطريق الصاعد » وحده : الابتدائى أولا ، ثم الثانوى ، ثم العالى . بل لا بد ان تشمل عملية التعريب ، فى آن واحد ، هذه المراحل مجتمعة لان كلا منها يتوقف على الآخر ، فيمده اما بالمعلمين والاساتذة ، وأما بالتلاميذ والطلبة . (تعريب الابتدائى يستلزم تعريب الثانوى ، لان الاول يستمد اطره من الثانى ، وهذا الاخير يتلقى « تلاميذه » من الاول .. وهكذا) .

نعم ، لا بد من التدريج .. ولكن التدريج « الافقى » لا التدريج «العمودى» . لقد سلكنا قبل الطريق الصاعد «أو التدريج العمودى» فوقعنا

فى مأزق . فهمنا « خطأ » ، وبكيفية سطحية ، « مبدأ » التوحيد ، توحيد التعليم ، فرحنا نحذف ، ونقلص او نهمل ، انواعا من التعليم ، كانت معربة او تكاد ، (التعليم الحر العربى — التعليم الاصلى — مدارس الشمال) . فكانت النتيجة تعميم الفرنسة ، وتكريس الازدواجية .

التدريج المقبول فى مثل هذه الحالة هو **التدريج الافقى** : انشاء اقسام معربة موازية ، فى كل مدرسة ، وفى مختلف اسلاك التعليم وشعبه ومعاهده ، اقسام يخطط لها ، بحيث تظل تتسع وتتكاثر ، الى ان «تبتلع» الاقسام المفرنسة نهائيا ، ويتحقق التعريب الشامل .

هذا ما كان يجب أن نفعل منذ البداية ، وهذا ما يجب فعله الآن بالنسبة للمواد التى لم تعرب بعد : العلوم والرياضيات .

— وكما يتوقف تعريب كل مرحلة من مراحل التعليم على تعريب المراحل الاخرى ، يتوقف كذلك **تعريب الادارة** ، ومختلف انواع الوظيفة ، على تعريب التعليم ، وتعريب التعليم على تعريب الادارة . . . ذلك لانه ما دام التعليم يمدنا باطر غير معربة ، فلا سبيل الى تعريب الادارة ، وما دامت هذه غير معربة فان الاطر التى ستتكون فى التعليم المعرب ستكون عاطلة او هامشية زائدة ، وهنا ايضا لا بد أن تشمل عملية التعريب ، فى آن واحد ، مختلف الادارات ومختلف درجات السلم الادارى . لان الادارة بما انها درجات وسلم، ومرافق مترابطة متشابكة ، فانه لا يمكن احداث اى تغيير فى جزء منها دون أن ينعكس اثره توا على الاجزاء الاخرى . . . هذه حقائق اولية بديهية .

على ان التعريب العميق الشامل ، كما نتصوره ، **التعريب الذى سيحدث فعلا ثورة فى اعماقنا** ، ويقلب اوضاعنا الاجتماعية والثقافية رأسا على عقب ، ليس مجرد احلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية فى التعليم والادارة والوظائف المكتبية ، بل التعريب الذى يمتد ، بقوة وفعالية ، الى مختلف

مرافق الحياة العامة ، الى البيت و الشارع ، الى القرية والمدينة ، إلى الاذاعة والتلفزة والسينما ، وكل وسائل التواصل ، ومجالات الاعلام والتخاطب .

ان عملية التعريب الشاملة ، يجب أن تستهدف ليس فقط تصفية اللغة الفرنسية كلغة حضارة وثقافة وتخاطب وتعامل ، بل أيضا — وهذا من الاهمية بمكان — **العمل على اماتة اللهجات المحلية البربرية منها او « العربية » الدارجة** . ولن يتأتى ذلك الا بتركيز التعليم وتعميمه الى اقصى حد فى **المناطق الجبلية والقروية** ، وتحريم استعمال أية لغة او لهجة فى المدرسة والاذاعة والتلفزة غير اللغة العربية الفصحى، وتخصيص برامج، متنوعة، مخططة، للتربية الشعبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، برامج تستمد مادتها ومضمونها من آفاق وأبعاد الهدف الوطنى العام : استكمال التحرير والبناء الاشتراكى ، وتقدم بلغة عربية فصحى مبسطة ، مدروسة ، مع العناية الفائقة بالحوار والمناقشة .

ان عملية مثل هذه ، وهى الواسعة الشاملة المبرمجة ، ستقضى فى اسرع وقت على مخلفات « السياسة البربرية » التى لجأ اليها المستعمر لضرب كياننا ، وطمس معالم عروبتنا ، كما ستعمل فى نفس الوقت على الرفع من مستوى العربية الدارجة الحالية التى تتزاحم فيها الالفاظ العربية المشوهة والكلمات الاجنبية « المكسرة » والتراكيب « المزجية » بشكل جعل منها لهجة هجينة غير قادرة تماما لان تكون « لغة شعبية » تعكس أحاسيس الشعب وتطلعاته ، كما كانت تفعل من قبل لغة « الزجل الشعبى » مثلا . . . ان العربية الدارجة السائدة الآن قد أصبحت عبارة عن خليط يضم بحق « أكثر من سبعين رقعة » ، خليط لا يستوعب انتاجا ، ولا ينتج شيئا . . ان تعميم التعريب كما شرحناه أعلاه ، سيؤدى حتما الى ادخال **اصلاحات جوهرية** —

مع مرور الزمن — فى « العربية الدارجة » ، ويعمل فى ذات الوقت ، على **تبسيط الفصحى** ، الشىء الذى قد يؤدى فى النهاية الى قيام لغة عربية فصحى جديدة ، **اكثر بساطة ومرونة** .

ان اهمال تعريب الحياة العامة بمختلف مرافقها ومستوياتها ، بهـذا الشكل الشامل العميق ، سيجعل عملية تعريب المدرسة والادارة تفشل فى تحقيق اهدافها ، وسيتركنا والاجيال المقبلة نعانى ، والى الابد ، من الازواج اللغوى — الفكرى ، الذى ينخر كياننا .. هذا الازواج المتمثل ، ليس فقط فى سيطرة اللغة الاجنبية ، بل ايضا فى تلك الهوة العميقة القائمـة الآن بين لغة الحديث والتخاطب ، ولغة الثقافة والعلم ، الهوة التى يتعدى اثرهـا مجال التواصل اللغوى ، الى البيئة الاجتماعية والعلاقـات « السلالية » والطائفيـة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان قصر التعريب والتثقيف على المدرسة وحدها ، واهمال التربية الشعبية ، وعدم العناية باعادة التكوين ، المستمرة ، الدورية المخططة ، كل ذلك سيجعل عملنا التعليمى المدرسى مهددا بالضياع المحقق : ان مصير الاجيال التى تغادر المدرسة للالتحـاق بالحياة العملية فى وقت مبكر ، لهذا السبب أو ذاك ، لن يكون شيئا آخر ، غير « **العودة الى الامية** » ، الشىء الذى سينعكس اثره ، حتما ، علـى مختلف مرافق حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ويعمل على عرقلة مجهوداتنا فى بناء مجتمع مغربى عربى متقدم .

واذا كان « البعض » منا يستصعب امكانية تحقيق التعريب ، بهـذه الكيفية الشاملة ، فى مدى فترة زمنية قصيرة ، ويستبعد حظوظ نجاحه حتى على المدى الطويـل ، متذرعا بـ « قلة الاطـر » ، و « ضرورة السيـر التدريجى لتجنب الفوضى والاضطراب » ، وغير ذلك من المبررات التى تقدم

عادة تحت غلاف التمسك الواهي بـــ «الحكمة والتبصر» ، فاننا ، ، تجنبا لكل نقاش عقيم معهم ، نحيلهم الى الامس القريب ، الى **الواقـــع التاريخـــي الى اصل المشكل ذاته .**

ان الرجوع الى تاريخ الاحتلال الفرنسي لبلدان المغرب العربي يضع امامنا حقيقة هامة ، كثيرا ما نتغاضى عنها ، أو على الاقل لا ندرك عمق ابعادها؛ وهي **ان الاحتلال العسكري كان مصحوبا ، خطوة خطوة ، بالاحتلال اللغوي والثقافي** (1) لقد فرض علينا المستعمر لغته وثقافته في المدرســـة والادارة والشارع في نفس اللحظات التي فرض علينا فيها وجوده العسكري والسياسي والاقتصادي . وهكذا اصبح شعبنا ، بين عشية وضحاها ، أمام لغة تفرض عليه فرضا ، في كل مرافق حياته العامة والخاصة ، فلم يجد بدا من قبولها مكرها ، لانها اصبحت ، في رمشة عين ، **لغة الحياة ، لغة المصالح ، لغـــة الخبز والمعاملات** ، لغة المعمل والحقل والمدرسة ، لغة الاذاعة والسينما . . . فلماذا ، اذن ، لا نفعل ازاء المستعمر وثقافته مثلما فعل هـــو ازاء لغتنـــا وثقافتنا . . ؟ لماذا لا نخوض معركة **التعريب الشامل** ، معركة التحرر الثقافي، **بنفس القوة وبنفس الاصرار الذين خضنا بهما معركة الاستقلال السياسي ..!**

مشكلة التعريب ، اذن ، لن تجد حلها الصحيح ، السريع والدائم ، الا في اطار ثورة **ثقافية شاملة** ، ثورة تستهدف تعريب الشخصية المغربية بكامل ابعادها وبمختلف مظاهرها ، لا مجرد « تعريب » الكلمات والمصطلحـــات والجمل في الكتب والاوراق . . . ان **التعريب** كما نفهمه ، وكما يجب أن يكون هو بعث وتغيير وتجديد : **بعث للغة القومية ، وتغيير للذهنيـــة ، وتجديـــد لاساليب العمل والتفكير** . . . اما ما دون ذلك ، فلن يتعدى مجرد عمل سطحي، قد لا تختلف نتائجه كثيرا عن نتائج دروس الترجمة « التعريب والتعجيم » التي كانت تلقنها مدارس الحماية لثلة من المغاربة والفرنسيين من اجل تكويـــن بعض التراجمة « المحلفين » . !

(1) انظر بعض الحقائق المتصلة بالموضوع في الفصل الثاني .

ان التعريب الشامل الذى ندعو اليه سيبقى مجرد عملية سطحية آلية، لا قيمة لها ، ما لم يتخذ بعده «العمودى» لدى كل فرد من افراد شعبنا ، بعده الثقافى الحضارى المتمثل خاصة فى تعريب الفكر وقوالب التفكير : نعنى بذلك ضرورة اعطاء مادة التثقيف التى ستكون معربة لسانا ولغة ، مضمونا عربيا قوميا مستمدا من العناصر الاصيلة التقدمية ، العناصر العقلانية ، فى تراثنا ، ونابعا من صلب مشاكلنا ومشاغلنا واختياراتنا ، مغتنيا الى اقصى حد بثقافة العصر ومنطقه وعلومه ... ان ذلك وحده ، هو الذى سيعطى لشخصيتنا قاعدتها الصلبة المتينة ، ولقدراتنا على الخلق والابداع مجالها الحيوى الاصيل .

هل ندعو هنا الى ما شجبناه من قبل ، الى « التوفيق » بين القديم والجديد ، بين « الاصالة والمعاصرة » ؟

كلا .. ان الامر غير ذلك تماما ...

لا بد من الوقوف قليلا عند هذه القضية ، قضية « **الاصالة والمعاصرة** » التى تبدو وكأنها الاشكالية الرئيسية التى تستبد بتفكيرنا الحديث والمعاصر.. وبعيدا عن الدخول فى جدال عقيم ، ومناقشات غير منتجة ، حول الاصالة ومتابعها ، والمعاصرة وحدودها ، ومن منهما يجب ان يحظى بالاولوية... الخ، نريد ان ننبه ، اولا وقبل كل شىء ، الى **ان وضع الاصالة فى مقابل المعاصرة ، كضد لها او نقيض ، انما يعكس فهما خاطئا وغير سليم لجوهر المسألة ، فهما يتجاهل او يجهل قوانين تطور التاريخ وحركة الفكر .**

ان الاصالة والمعاصرة مفهومان لا يتعارضان ، لا ينفى احدهما الآخر نفيا ميكانيكيا الا على **صعيد التصور العقلى المجرد** . التصور الذى يعزل الظواهر بشكل تعسفى بعضها عن بعض ، ويقيم لكل منهما كيانا وهميا خاصا به .. والا فمن ذا الذى يستطيع ان يدعى انه قادر على تحرير نفسه

من دوافع الحاجات الآنية ، وتوجيهات المعطيات الراهنة ، الخفية منهـا والظاهرة ، عند ما « يسجن نفسه » فى التراث ؟ الا يفكر الداعون الى جعل التراث « سيداً » علينا ، الى « تسويده » على مختلف مرافـق حياتنـا ، بمقولات الفكر المعاصر ، او ببعضها على الاقل ؟ الا يستعملون فى ذلك بعض اساليب هذا الفكر ذاته .. ؟ ثم من ذا الذى يستطيع الادعاء بانه قادر على أن ينصرف الى العصر « بكليته » ، منسلخا « كل الانسلاخ » من التراث المنقول اليه بالف طريقة ، متجردا من كل تاثير مباشر او غير مباشر من جانب المجتمع الذى لا يخلو فى اى زمان أو مكان مما يحمله الماضى الى الحاضر ، خصوصا عندما يتعلق الامر بمجتمع كمجتمعنا المثقل جدا بمخلفات الامس القـريب والبعيد ، المشبع جدا بالعديد من المفاهيم والمعطيات والمشاكل التى يصعب جدا ، ان لم يكن يستحيل ، التمييز فيها بين ما هو من فعل الماضى ورواسبه، وما هو من صنع الحاضر ومعطياته . ؟

ان مشكلة الاصالة والمعاصرة مشكلة زائفة ، خصوصا عندما تطرح على صيغة « ضرورة الاختيار » بين **ان نكون انفسنا** ، فنستوعب تراثنا ، دراسة وبحثا ، تمجيدا واعجابا ، ايمانا وتطبيقا ، ليحتوينـا هـو ، بـدل ان نحتويه نحن .. وبين أن نكون « غيرنا » ، فنتقمص شخصيته ، ونغرق فى ثقافته ، وننصهر فى كيانه .

كلا .. ! **أن عينى الانسان توجدان فى وجهه لا فى قفاه .. كما ان وعيه يصبح عدما مع فقدان الذاكرة ! ان الهروب من الحاضر ليس ممكنا الا فى لحظة الممات .. والتحرر « الكامل » من الماضى غير ممكن البتة الا فـى لحظة الميلاد** .. ! وحتى فى هذه اللحظة نفسها فان الماضى يفرض حضوره بالوراثة وانواع الاستعدادات الخاصة والعامة ! **ان « انسان الامس » لم يعد موجودا ، ولا يمكن ان يوجد ثانية ، مثلما ان « الانسان البيولوجـى »**

لا وجود له الا فى الظلام ، ظلام الارحام . !

فلماذا ، اذن ، هذا التمسك ، بوهم « ضرورة التوفيق » ، بين الاصالة والمعاصرة ؟

فى تقديرنا أن أساس المشكل يرجع فى نهاية المطاف الى **ثقل الحاضر علينا** ، الى عجزنا عن مواجهته ، وعدم تبيننا لحقيقة معطياته ، وافتقادنا القدرة على تغييره . ومن هنا تكون الدعوة الى الاصالة (على انها العودة الى التراث) ، والمعاصرة (على انها الاخذ من الغير) ، ليست شيئا آخر سوى شكل من اشكال الهروب من الحاضر ، وأسلوبا سلبيا ، من أساليب رفضه . **اما عند ما نتمكن من مواجهة الحاضر ، حاضرنا نحن ، بكل ما يتضمنه ويتزاحم فيه ، من « قديم وجديد » ، سواء على الصعيد المادى الاجتماعى ، أو على المستوى الروحى الفكرى ، أما عند ما نشرع فعلا فى معالجة مشاكله ، بالهدم والبناء من اجل تحريره واعادة بنائه ، بطريقة منهجية علمية ثورية ، فان الاشكالية التى تطرحها قضية « الاصالة والمعاصرة » ستختفى حينئذ من مجال وعينا ، لاننا سنكون آنذاك بصدد تحقيق شخصيتنا ، هذه الشخصية التى يدفعنا افتقادنا اياها ، كاملة سليمة ، الى الهروب الى الوراء بدعوى الاصالة ، أو الفرار الى « امام » بدعوى المعاصرة .**

ان شخصيتنا ، هذه التى نفتقد فيها الجانب الاصيل والمبدع لن نحققها الا من خلال **ممارسة ثورية** ننكب خلالها وبواسطتها على تغيير الحاضر الذى نرفضه ونستحيى منه ، وبناء المستقبل الذى نأمله ونطمح اليه . وحينئذ فقط، سيتم لنا — قصدنا الى ذلك أم لم نقصد — ربط الحاضر بالماضى والمستقبل ، ربطا يقضى على الهوة التى تفصلنا عن أصيل حضارتنا وتراثنا ، وزاهر مستقبلنا ومصيرنا .

يجب اذن ، ان نكف عن جعل ماضينا منافسا لحاضرنا ، وعن تصور

« حاضر غيرنا » نموذجا لمستقبلنا ... يجب ان نعيش حاضرنا ، نغيره ونعيد بناءه ، غير خائفين من « ضياع » « اصالتنا » ، لان ضمير المتكلم (فى نعيش ونغير ونعيد) هو الماضى نفسه ، هو التراث نفسه ، هو الاصالة ذاتهـــا . هذه الاصالة التى لا يمكن ان تخرج من الكمون الى الظهور ، من القوة الـــى الفعل ، الا بالحركة ، بالعمل ، بالممارسة الثورية .

* * *

2 — **دقرطة التعليم :** التعريب الشامل لمختلف مرافق حياتنا الاجتماعية والثقافية والفكرية ، التعريب الذى به تتحقق اصالتنا ، وتتفتـــح امكانـــات شعبنا الابداعية الخلاقة ، لا يمكن ان يتم ، ولا ان يوتى ثماره ، الا فى جو من التعبئة الشاملة ، المخططة المتواصلة ، من اجل **تحقيق الديمقراطية فى التعليم،** وضمان استمرارها ، والعمل على تعميقها ...

وسواء فهمنا من **ديموقراطية التعليم : « تمكين جميع الاطفال ، مهما كانت احوالهم الاجتماعية ، من الوصول الى اعلى مستوى من الثقافة العامـــة ، والاهلية المهنية التى تناسب ميولهم واستعداداتهم »** ، او جعلناها تهدف الى **« العمل على تزويد كل فرد باقصى ما يمكن ان يتوافر لديه من القابليات التى تناسب ، وتوافق ، ما زود به من استعـــدادات بيولوجيـــة ونفسيـــة »** ، فان الديمقراطية ، كمبدا ، فى ميدان التعليم ، تستلزم :

— **تمكين جميع الاطفال** ، ذكورا كانوا او اناثا ، بدويين وحضريين ، من **الحصول على اعلى حد ممكن من الثقافة العامة** ، التى يجب ان تشكل الثقافة القومية (من تراث وتربية سياسية واجتماعية واقتصادية) عمودها الفقرى .

— تمكينهم جميعا ، دون تميز ما ، من **متابعة** ، ثم **مزاولة** ، **التخصص** الذى يناسب استعداداتهم ومواهبهم وميولهم ، مع اعطاء **الاولوية** لمتطلبات التنمية وحاجات البناء الاشتراكى المأمول .

— **تمكينهم جميعا** ، وعلى أساس المساواة التامة فى الفرص ، من **افادة الوطن والاستفادة من خيراته** ، كل حسب كفاءته ومواهبه وقدراته ، وذلك بالاستغلال العلمى لطاقاتهم العقلية والعضلية ، واعتبار ما ينفق عليهم من اجل تعليمهم واعادة تكوينهم بكيفية دورية منتظمة ، **استثمارا وطنيا** . .

ان تحقيق الديمقراطية فى التعليم ، بهذا المعنى ، تتطلب عدة أمور :

1 — من حيث المضمون الذى تحمله :

* أن تكون مرحلة الثقافة العامة **واحدة** موحدة بالنسبة للجميع (مدرسة وطنية واحدة) .

* أن يكون مضمون هذه الثقافة العامة **مستمدا** ، وفى ذات الوقت مغنيا ، للهدف الوطنى العام الذى عبرنا عنه قبل بـ : **التحرير والبناء الاشتراكى** .

* أن يكون التعليم فى هذه المرحلة ، وفى المراحل التالية ، نظريا **وعمليا** معا . يجب أن لا يكون التعليم المدرسى مجرد تلقين **وتحفيظ ، بل اغناء للفكر واكسابا للمهارات اليدوية** ، وذلك وفق خطة ترمى الى **التضييق** جدا من الهوة التى تفصل بين **العمل اليدوى والعمل الفكرى** .

* أن تكون برامج المدرسة الوطنية ، وبرامج « التربية الشعبية » والبرامج التثقيفية الاعلامية التى تغذى وسائل الاعلام بمختلف أنواعها ، متجاوبة ، متكاملة ، صادرة من نفس التوجيه الذى يفرضه الهدف الوطنى العام .

2 — من حيث الاساس الذى تقوم عليه :

* **ديمقراطية سياسية حقيقية** ، ولا مركزية ، مقننة متفتحة ، تتيح لجماهير الشعب المساهمة الحماسية الفعالة ، الواعية والهادفة ، فى البناء والتشييد ، والمراقبة الفعلية الملموسة لمختلف مستويات المسؤوليـــة .

* **ديمقراطية اجتماعية** تقضى على الفوارق الطبقية ، فوارق الغنى والثروة التى تتحكم الى حد بعيد فى المستقبل الثقافى والعلمى للطفل ، بل ايضا فى مواهبه واستعداداته نفسها : البيولوجية منها والنفسية . (ان ابن الغنى يكون عادة اكثر ذكاء من ابن الفقير ، نظرا لنوع التربية التى يتلقاها والامكانيات التى توفر له ، كما ان ابناء الفقراء يضطرون غالبا الى الانقطاع عن الدراســة والانخراط فى سلك الحياة العملية طلبا للرزق ، تحت وطأة فقر الاسرة) .

ان ديمقراطية التعليم ستبقى شعارا اجوف فارغا ، ما لم تكن مؤسسة على ديمقراطية سياسية ، وعدالة اجتماعية حقة ، على اختيارات اشتراكية علمية واضحة ... ان الاشتراكية وحدها هى القادرة على توفير المـــال اللازم والاطر الضرورية لتعميم التعليم تعميما حقيقيا ، واعطائه مضمونـــا وطنيا سليما يخدم الحاضر والمستقبل .. وهى ايضا القادرة وحدها علـــى توفير الشغل ، وبالتالى الخبز للجميع .

* * *

مشكل التعليم ، اذن ، لن يجد حله الصحيح ، والوحيد ، الا فى اطار حل جذرى للمشكل العام ، السياسى والاقتصادى والاجتماعى .